مـجلـــة بـدايـــات
Email :bidayat@lagh-univ.dz Revue :Bidayat ISSN: 2676-198X
المجلد السادس(06) / العدد: الأول(01) /جانفي2024/ص ص: 138-148

الحجاج بالأهواء في مقامات بديع الزمان الهمذاني، المقامة البخارية أنموذجا

The Argumentation with passions in the Maqamat of Badi' al-Zaman al-Hamadhani, the al-Bukhari Maqama as a model

كنان مبخوت[1]

kananemebkhout[1]

[1] **جامعة عمار ثليجي- الأغواط (الجزائر)**

البريد الإلكتروني:kanane.mebkhout@lagh-uni.dz

تاريخ الإرسال:2022/12/04	تاريخ القبول:2023/06/16	**تاريخ النشر**: 2024/01/22

مُلخّص البحث

يعتبر فن المقامة من الفنون النثرية السردية المتداولة التي تمتاز بقوة لغتها وحبكتها، وبالرغم من أنها قد خضعت للكثير من الدراسات التداولية والأسلوبية والسيميائية وغيرها، إلا أنها لم تحظ بمقاربات حجاجية سيما وأنها من جهة أخرى تعتبر مصدرا مهما للكشف عن الحجاج الذي يروم الإقناع من خلال استدراج الجمهور عن طريق الأهواء والانفعالات، لذلك تسعى هذه المقاربة إلى الكشف عن بنية الحجاج في المقامة البخارية، باعتبارها خطابا يقوم على الإغواء والإيقاع بالمخاطب في سياقات مقامية مختلفة، ويكتنز مقومات حجاجية لا يمكن إغفالها،إضافة إلى الكشف عن البنيات والتقنيات الحجاجية التي تسهم في بناء الأهواء مثل مقدمات الحجاج ومنطلقاته والعوامل والروابط الحجاجية.

الكلمات المفتاحية:حجاج؛ مقامة؛ باتوس؛ مقدمات؛ روابط حجاجية.

Abstract:

The art of maqama is considered one of the circulating narrative prose arts that are characterized by the strength of its language and its plot, and although it has been subject to many pragmatic, stylistic, semiotic and other studies, it has not received argumentative approaches, especially since on the other hand it is considered an important source for revealing the pilgrims who seek to persuade by luring The audience is through whims and passions, so this approach seeks to reveal the structure of pilgrims in the Bukharianmaqama, as a discourse based on seduction and enticing the addressee in different maqama contexts. Such as the premises of the arguments and its premises and the argumentative factors and links..

Kays words: Argumentation; Maqama; Pathos; introductions; Argumentative links

مقدمة:

إن الحديث عن المقامة يقتضي بالضرورة العودة إلى البيئة التي ظهرت فيها، بيئة العصر العباسي الذي يعتبر من أزهى عصور الدولة الإسلامية،فقد شهدت فيه الحركة الأدبية والعلمية تطورا كبيرا بسبب اهتمام خلفاء الدولة العباسية بالعلوم والأدب والشعر، واحتفائهم بالعلماء والفلاسفة والشعراء عن طريق مجالستهم، وتقديم الهدايا والعطايا لهم مما فسح المجال لبروز الكثير من العلماء في ميادين الطب والكيمياء والجبر والهندسة، وعلوم الدين كعلم القراءات والتفسير والفقه والحديث، وعلوم الأدب وفنونه الشعرية والنثرية خاصة في بعض الأغراض الشعرية الجديدة والفنون النثرية التي لم تكن معروفة من قبل كأدب الرسائل بنوعيه الديوانية والإخوانية والوصايا والتوقيعات والمناظرات والخطب السياسية والدينية.

والمقامة باعتبارها فنا من الفنون النثرية التي لاقت رواجا وانتشارا في هذا العصركان من الطبيعي أن يكون لها نسيجها الخاص باعتبارها تجمع بين مقصدين مهمين وهما المتعة وجمالية الأداء، ومعالجة بعض المواضيع التي تخص حياة وسلوكيات الأفراد والجماعات بمختلف جنسياتهم وعرقياتهم وألسنتهم وتوجهاتهم الدينية والمعرفية بطريقة فنية نقدية، ونظرا لتطور مناهج النقد الأدبي في العصر الحديث والمعاصر، وظهور نظريات مختلفة تعنى بمقاربة وتحليل الخطابات، وانفتاح المقامة على تعدد القراءات فقد تمت مقاربتها مقاربة سياقية ونسقيةكشفت عن بنيتها اللغوية والدلالية لكنها كانت قاصرة عن إدراك البعد الحجاجي فيها والذي يقوم على التأثير والإقناع، وهو ما أثار جملة من الإشكاليات وعلى رأسها ما هي أهم البنى الحجاجية التي تقوم عليها المقامة ؟ وما هي الآليات والأدوات الإجرائية التي تزودنا بها نظرية البلاغة الجديدة (الحجاج) لاكتشافها وكيفية عملها؟

أولا: مفهوم المقامة:

1.1–الدلالة المعجمية: تعود الدلالة المعجمية للمقامة في لسان العرب لابن منظور إلى الجذرالثلاثي (ق و م) حيث:" المقام والمقامة: الموضع الذي تقيم فيه، والمقامة بالضم: الإقامة، والمقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس"

[1]، وقد وردت في كتاب الله العزيز بالفتح والضم في موضعين مختلفين وهما قوله تعالى:(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[2]، وفي قوله تعالى: (ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فضلهلَايَمَسُّنَا فِيهَا نَصَب وَلَايَمَسُّنَافِيهَالُغُوب][3]، وسواء كانت بالضم أو الفتح فهي تدل على موضع القيام، لكنها أخذت دلالات أخرى عندما توسع العرب في "استعمال كلمة «مقامة» حتى استعملت استعمال المكان والمجلس"[4]، وقد تم تداولها كثيرا بهذا المعنى في الشعر العربي كقول زهير بن سلمى في قصيدته صحا القلب عن سلمى التي يمدح فيها سنان بن أبي حارثة المري:

وَفيهِم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُموَأَندِيَةٌ يَنتابُها القَولُ وَالفِعلُ[5]

2.1–الدلالة الاصطلاحية: تختلف دلالة المقامة الاصطلاحية من باحث إلى آخر، فهي عند زكي مبارك: مجموعة من القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء"[6]، لأنها تقوم على أحداث وزمان ومكان وشخصيات وهي مقومات القصة،بينما يعرفها إنعام الجندي بقوله:" درس لغوي فيإطار قصصي"[7]، وهو يشير بهذا التعريف إلى وظيفتها التعليمية فالغاية منها ليس عرض الحادثة التي تقع للبطل وإنما هو الأسلوب والطريقة التي تعرض بها الأحداث، لكن شوقي ضيف لا يعتبرها قصة وإنما هي عنده "حديث أدبي بليغ، أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة"[8]، وقد استند في ذلك على تعريف بديع الزمان الهمذاني الذي يعتبر أول من أعطى للمقامة دلالتها الاصطلاحية بوصفها أحاديث تلقى في جماعات.

ثانيا: المقامة البخارية[9]:وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة بخارى ونصها:

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: أَحَلَّنِي جَامِعَ بُخَارى يَوْمٌ وَقَدِ انْتَظَمْتُ مَعَ رِفْقَةٍ فِي سِمْطِ الثُّرَيَّا، وحِينَ احْتَفَلَ الجَامِعُ بِأَهْلِهِ طَلَعَ إِلَيْنَا ذُوْ طِمْرِينِ قَدْ أَرْسَلَ صِواناً، وَاسْتَتْلى طِفلاً عُرْيَانَاً، يَضِيقُ بِالضُّرِّ وُسْعُهُ، وَيأْخُذُهُ القُرُّ ويَدَعُهُ، لاَ يَمْلِكُ غَيْرَ القِشْرَةِ بُرْدَةٍ، وَلاَ يَكْتَفِي لِحِمَايَةِ رِعْدَةٍ، فَوَقَفَ الرَّجُلُ وَقَالَ: لاَ يَنْظُرُ لِهَذا الطِّفْلِ إلاَّ مَنِ اللهُ طَفَّلَهُ، وَلاَ يَرِقُّ لِهذا الضُّرِّ إلاَّ مَنْ لا يأْمَنُ مِثْلَهُ، يا أَصْحَابَ الجُدودِ المفْرُوزَةِ، وَالأَرْدِيةِ المطْرُوزَةِ، وَالدُّورِ المنَّجَدَةِ، والقُصُورِ المشَّيدَةِ، إِنَّكُمْ لَنْ تَأَمَنُوا حَادِثَاً، وَلَنْ تَعْدَمُوا وارِثَاً، فَبادِرُوا الخَيْرَ ما أَمْكَنَ، وأَحْسِنُوا مَعَ الدَّهْرِ ما أَحْسَنَ، فَقَدْ واللهِ طَعِمْنَا السِّكْبَاجَ، وَرَكِبْنَا الهِمْلاجَ، وَلَبِسْنَا الدِّيبَاجَ، وَافْتَرَشْنَا الحَشَايَا، بِالعَشَايَا، فَمَا رَاعَنَا إلاَّ هُبوبُ الدَّهْرِ بِغَدْرِهِ، وانْقِلابُ المِجَنِّ لظَهْرِهِ، فَعَادَ الهِمْلاَجُ قَطُوفاً، وانْقَلَبَ الدِّيَاجُ صُوفاً، وَهَلُمَّ جَرًّا إلى ما تُشَاهِدونَ مِنْ حالي وَزِيِّي، فَهَا نَحْنُ نَرْتضِعُ مِنَ الدَّهْرِ –ثَدْي عَقيمٍ، وَنَرْكَبُ مِنَ الفَقْرِ ظَهْرَ بَهِيمٍ، فَلا نَرْنُو إلاّ بِعَيْنِ الْيَتيمِ، وَلاَ نَمُدُّ إلاَّ يَدَ العَدِيمِ، فَهَلْ مِنْ كَرِيمٍ يَجْلو غَياهِبَ هذِهِ البُؤُوسِ، وَيَقُلُّ شَبَا هذِهِ النُّحوسِ؟ ثُمَّ قَعَدَ مُرْتَفِقاً وَقالَ لِلطِّفْلِ: أَنْتَ وَشَأْنُكَ، فقالَ: ما عَسى أَنْ أَقُولَ وَهذا الكلامُ لَوْ لَقِيَ الشَّعْرَ لَحَلَقَهُ، أَوْ الصَّخْرَ لَفَلَقَهُ، وإِنَّ قَلْباً لَمْ يُنْضِجْهُ ما قُلْتَ لنِيءٌ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ يَا قَوْمُ، مَا لَمْ تَسْمَعُوا قَبْلَ اليَوْمِ، فلْيشْغَلْ كُلُّ مِنْكُمْ بِالجُودِ يَدَهُ، وَلْيَذْكُرْ غَدَهُ، وَاقِياً بِيَ ولَدَهُ، واذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ، وأَعْطُونِي أَشْكُرْكُمْ. قَالَ عِيسَى بْنُ هشَامٍ: فَمَا آنَسَنِي فِي وَحْدَتِي إلاَّ خَاتَمٌ خَتَّمْتُ بِهِ خِنْصَرَهُ، فَلَمَّا تَنَاوَلَهُ أَنْشَأَ يصِفُ الخَاتَمَ عَلى الإِصْبَعِ، وَجَعَلَ يَقُولُ:

وَمُنْطَقٍ مِنْ نَفْسِهِ *** بِقِلادَةِ الجَوزَاءِ حُسْنَا

كَمُتَيَّمٍ لَقِيَ الْحَبِيـ *** ـبَ فَضَمَّهُ شَغَفاً وحُزْنَا

مُتَأَلِّفٍ مِنْ غَيْرِ أَسْـ *** ـرَتِهِ عَلى الأَيَّامِ خِدْنَا

عِلْقٌ سَنِيٌّ قَـدْرُهُ *** لكِنَّ مَنْ أَهْدَاهُ أَسْنى

أَقْسَمْتُ لَوْ كَانَ الوَرى *** فِي المجْدِ لَفْظاً كُنْتَ مَعْنَى

قالَ عِيسَى بْنُ هِشَامٍ: فَنُلْنَاهُ ما تَاحَ لَنْا منَ الفَوْرِ، فَأَعْرَضَ عَنَّا، حَامِداً لَنَا، فَتَبِعْتُهُ حَتَّى سَفَرتِ الخَلْوَةُ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذا هُوَ وَاللهِ شَيْخُنَا أَبُو الفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِيُّ، وإِذَا الطَّلاَ زُغْلُولُهُ، فَقُلْتُ:

أَبَا الفَتْحِ شِبْتَ، وَشَبَّ الغُلاَمُ *** فَأَيْنَ السَّلاَمُ، وَأَيْنَ الكَلاَمُ؟

فَقَالَ:

غَرِيباً إِذَا جَمَعَتْنَا الطَّرِيقُ *** أَليفاً إِذَا نَظَمَتْنَا الخِيَامُ

فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ مُخَاطَبَتِي، فَتَرَكْتُهُ وانْصَرَفْتُ.

ولتحليل نص المقامة تحليلا حجاجيا فإننا سننطلق من بنية الباتوس وباقيالبنى الحجاجية والتقنياتالأخرى التي ساهمت في تشكيلها، وجسدتبتظافرهاقوة الإقناع والتأثير، مستأنسين في ذلك بدعوة شوقي ضيف إلى الاهتمام بالجانب العاطفي الذي تم إهماله في المقامات بدل الاهتمام ببلاغة اللفظ وزخرفها حيث يقول:" وكأنما ألجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم، فلم يتجهوا بالمقامة إلى وصف حوادث النفس وحركاتها، ولا إلى الإفساح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحللها، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية صرفة؛ إذ كان اللفظ فتنة القوم، وكان السجع كل ما لفتهم من جمال في اللغة وأساليبها، وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها"[10]

ثالثا: صورة الباتوس:

يعتبر الباتوس من وسائل الإقناع وهو يشير إلى المخاطب في بعض التعريفات التي تكتسي صبغة تواصلية كنموذج رومان جاكبسون في نموذجه المتكون من: المخاطب والمخاطب والرسالة. غير أنه في تعريفات البلاغة بدءا من أرسطو إلى الدراسات البلاغية الجديدة يشير إلى أهواء المخاطب حيث يحده أرسطو بأنه:" الأحوال التي يكون عليها السامعون عندما يثير الخطاب انفعالاتهم؛ لأننا لان صدر الأحكام نفسها في حالتي الحزن أو الفرح والحب أو الكراهية"[11]، ويبدو هذا التعريف أكثر تحديدا ودقة لمجال الحجاج بالعواطف أو الأهواء؛ ذلك أن الحالة النفسية للإنسان تتغير من موقف إلى آخر، ففي الأفراح تكون عواطفه منشرحة وتواقة، بينما في الحزن تكون مغايرة تماما، حيث تتسم بالانقباض والشعور بالضعف والوهن، أما في الحب فتحذوه الآمال لكن في الكراهية ينبعث الحقد والغضب والاشمئزاز.

وتعزى هذه العواطف إلى مصدر انبعاثها، اللذة والألم ومقدار سيطرتهما على الإنسان، لذلك وسع أرسطو مفهوم الباتوس من الأحوال التي يكون عليها السامعون إلى الانفعالات التي يرى أنها:" هي كل التغيرات التي تجعل الناس يغيرون رأيهم فيما يتعلق بأحكامهم وتكون مصحوبة باللذة والألم مثل الغضب والرحمة والخوف وكل الانفعالات المشابهة وأضداها"[12]،فاللذة والألم مصدران مؤثران وبهما يقاس مدى قابلية الإنسان للتأثير والتأثر، وبهما يرتبط الحجاج الخطابي.

والأهواء عند أرسطو أربعة عشر، وقد حصرها في ثلاثة مظاهر وهي:" طبع الأشخاص الذين تنتابهم هذه الأهواء عادة أو مزاجهم، والأشياء أو الأشخاص الذين يكونون موضوعا لها، والظروف التي تستثيرها"[13]، فالطبائع الإنسانية والأشياء أو الأشخاص والظروف هي واحدة من الركائز الأساسية لأية عملية حجاجية تخاطبية، وهي تحديدات مختلفة ومنسجمة في آن واحد، إذ لابد من مراعاتها للحصول على استجابات إيجابية.

ويعرفه محمد مشبال بقوله:" الباتوس لفظ عام يدل على مجموعة من الأهواء التي يثيرها الخطيب في السامع لحمله على قبول دعواه او وجهة نظره"[14]، فالباتوس يختلف عن مصطلح المخاطب وإنما يشير إلى ما يتعلق به من خاصيات بسيكولوجية ونفسية أو ما يعبر عنها بالأهواء التي يسعى الخطيب إلى النبش فيها من أجل تهيئة المخاطب وإشراكه في العملية التواصلية للوصول إلى نقطة اتفاق وبالتالي استبعاد كل معارضة من شأنها إفشال مسعى الخطيب.

ويمكن التدليل عليها من خلال مظاهرها التي تتمثل في:

-التمثيل غير الخطابي للأشياء والأحداث والأشخاص: يتعلق الامر بعرض وسائل غير خطابية ذات علاقة بالحادث مصدر العاطفة، وهي قادرة على الإسهام في إثارة العاطفة في الجمهور.
-وصف الأشياء والأفعال المثيرة والناس المتأثرين وتفخيم هذه المعطيات المثيرة.
-يعمد الوصف العاطفي إلى إضفاء البعد الدرامي على الأشياء العادية وجعلها مثيرة، وقد يعمد الخطيب في إنتاج الأهواء إلى إقامة تماثل بين الحالة الحاضرة وحالة أخرى مشهورة
-الظهور بمظهر التأثر؛ إذ يعمل الخطيب على الظهور بمظهر الهوى أو الانفعال الذي يروم توصيله أو إثارته في المخاطب؛ وهي استراتيجية تستنفر عدة وجوه بلاغية كالاستفهام والتعجب[15].

1.3-التمثيل غير الخطابي للأشياء: تعد الصور والمنحوتات والرسومات والإشارات وما يتبعها من لغة الجسد من الأشكال الخطابية غير اللغوية، التي توظف في شتى أنواع الخطاب وهي بديل للغة ذات شحنات دلالية كثيفة، بمقدورها إثارة المتلقي والحصل على ردات الفعل المرغوب فيها، لذلك نرى أن المقامة البخارية قد تجسدت فيها بعض هذه التمثيلات المادية كأمثلة حاملة للأهواء وباعتبارها كذلك مظهرا من مظاهر اختيار المقدمات الأخرى التي أشار إليها عبد الله صولة ومن ضمنها:

- إخراج عناصر الحجاج من الغياب إلى الحضور، وجعلها ماثلة في أذهان المخاطبين.

- استخدام الأشياء المادية من أجل التأثير.
- اختيار النعوت والصفات وجعلها ملائمة للحجاج.
- استخدام التكرار[16].

1.1.3–صورة الرجل الكادح: وفيها يظهر أبو الفتح على هيئة رجل فقير يرتدي أسمالا بالية وتدل عليه عبارة (طَلَعَ إِلَيْنَا ذُوْ طِمْرِينِ) والطمر بكسر الطاء هو الثوب الخرق البالي، ولاشك أن اللباس الذي يرتديه الإنسان يعكس حالته الاجتماعية، فألبسة السلاطين والملوك وذوي المقامات الرفيعة تختلف تماما عما يرتديه عامة الناس، وللفقراء والمساكين أزياء يتميزون بها كما أن ثياب أصحاب الحرف والمهن والصنائع مختلفة عن بعضها، باختلاف الأزمنة والأمكنة وهذا متعارف عليه في جميع البيئات الإنسانية، وقد بين الجاحظ هذه الاختلافات والفروقات حيث يقول:" وبالناس – حفظك الله– أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما ولكل صنف حلية وسمة يتعارفون بها"[17].

وتعمل هذه الصورة على تحريك مشاعر الجمهور وإثارة عواطفهم مما يدعوهم الى إظهار التعاطف والشفقة والرحمة وتقديم المساعدة له، فتصبح الصورة في حد ذاتها حجة لا يمكن تجاهلها.

2.1.3–صورة الصوان: الصوان هو الوعاء أو الآنية التي يطرحها المتسول على الأرض أو يحملها في يديه ليضع فيه الآخرون عطاياهم، وتعتبر صورة مكملة للأولى، وهي تعمل على زيادة التأثير في الجمهور الذي يشق عليه ترك الوعاء خاويا.

3.1.3– صورة الطفل العريان: وتظهر في عبارة (وَاسْتَلْى طِفلاً عُرْيَانَاً) فاستلى هنا بمعنى استتبع وجعله تاليا له، ولفظة عريان هنا لا تعني تجرده من اللباس كليا وإنما إشارة إلى أن ما يرتديه من لباس لا يغطي جميع جسده ولايقيه من حر الشمس ولا من قر البرد ويظهر ذلك في عبارة (يَضِيقُ بِالضُّرِّ وُسْعُهُ، وَيأْخُذُهُ القُرُّ ويَدَعُهُ، لاَ يَمْلِكُ غَيْرَ القِشْرَةِ بُرْدَةٍ، وَلاَ يَكْتَفِي لِحِمَايَةِ رِعْدَةٍ).

وتبدو هذه الصورة بالغة التأثير في النفوس لأن للطفل مكانة عظيمة في حياة الإنسان فقد قرنه الله عز وجل بالمال وعده من زينة الحياة في قوله تعالى:" الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا"[18]، وضمن له حقوقه من رضاع وأكل وشرب وكسوة في قوله تعالى:" وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "[19]، وحث على تعليمه وتأديبه وحسن تربيته ويظهر ذلك في وصايا لقمان لابنه، وكذلك نجد الأمر في السنة النبوية الشريفة وفي الشعر.

إن ظهور الطفل بهذه الحالة المزرية هو استدعاء لعاطفة الأبوة التي تضعه بمنزلة الابن وتأبى أن ترى فلذة الأكباد تعاني مرارة العيش وقساوته وبالتالي سد حاجاته ما أمكن حتى تعود له حيويته ونشاطه ويضمن الحياة الكريمة ويكون مثل أقرانه، ولا شك أن هذه الصورة أقوى من سابقتيها من حيث التأثير في المشاعر والأحاسيس وتعمل هذه الصور مجتمعة تكثيف الحجاج لأن الحجاج الناجع في نظر بيرلمان هو" الذي ينجح في مضاعفة كثافة التصديق هذه على نحو يثير عند السامعين الفعل المتوخى(فعل إيجابي أو الامتناع)، أو على الأقل، أن يخلق لديهم الاستعداد للقيام بالفعل، الذي سيتجلى في اللحظة الملائمة"[20]

2.3: الوصف العاطفي:

في نص المقامة مؤشرات كثيرة توحي بأن الخطيب كان في سعة من العيش لكن تقلبات الدهر حالت دون ذلك ليصبح فقيرا معدوما، وهذا أمر مسلم به لدى جميع الناس لأن دوام الحال من المحال، لكنه لجأ إلى أسلوب التفخيم والمبالغة في هذه المعطيات لتبدو مثيرة وهو ما يستدعي إثارة أهواء الجمهور، فالمعاني كما يرى الجاحظ" إذا كسبت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي"[21].

ومن ضمن هذه الأوصاف التي تدل على العيش الرغيد (طَعِمْنَا السِّكْبَاجَ، وَرَكِبْنَا الهِمْلاجَ، وَلَبِسْنَا الدِّيبَاجَ، وَافْتَرَشْنَا الحَشَايَا، بِالعَشَايَا) فهي تتعلق بالمأكل والمشرب والمركب وشاملة لجميع مظاهر الحياة ومن الأوصاف التي تدل على الفقر (فَهَا نَحْنُ نَرْتَضِعُ مِنَ الدَّهْرِ -ثَدْي عَقيمٍ، وَنَتَرَكَبُ مِنَ الفَقْرِ ظَهْرَ بَهِيمٍ، فَلا نَرْنُو إِلاّ بِعَيْنِ الْيَتيمِ، وَلاَ نَمُدُّ إِلاَّ يَدَ العَدِيمِ).

3.3-الظهور بمظهر المتأثر: بالرغم من أن شدة الانفعالات وحدتها تختلف من شخص إلى آخر إلا أن الجامع بينها واحد وهو مقدار ما تحققه من اللذة أو الألم، لذلك يسعى فيها الخطيب إلى كشف عن مواطنها في المخاطب ولا يتأتى له هذا إلا بالظهور بمظهر الهوى أو الانفعال باستعمال بعض الوجوه البلاغية الفاعلة كالاستفهام،والتعجب،والتمني، وغيرها.

ومن الوجوه البلاغية التي استعملها الخطيب في هذا النص الاستفهام الذي ورد في عبارة فهل من كريم يجلو غياهب هذه البؤوس، ويفل شبا هذه النحوس؟ وهو معطى حجاجي يشير إلى مقدار الألم الذي حل به وجعله يعيش في ظلام حالك، كما يشير إلى الاستعطاف عن طريق تفخيم صورة المتصدق من خلال إصباغ صفة الكرم عليه، فلم يقل: هل من أحد؟ وإنما قال: هل من كريم؟

4.3- المماثلة: وفيها يسعى المحاجج إلى إقامة تماثل بين الحالة الراهنة بحالات أخرى مشهورة، غير أننا نعدم في هذا النص ما يدل على ذلك، ولكن معطيات النص تشير وجود تماثل بين حالة حاضرة وأخرى متوقعة الحدوث:

أ-الحالة الحاضرة: وتتعلق بحالة المحاجج من: الغنى إلى الفقر حيث تم إسقاطها على حالة الأشياء وطبيعتها إذ أصبح: الديباج صوفا والهملاج (الدابة سريعة السير) قطوفا (الدابة بطيئة السير)

ب-الحالة المتوقعة الحدوث: وفيها يسعى المحاجج إلى التذكير أنه لا يسلم من تقلبات الدهر أحدا، فما حدث له ليس ببعيد عنهم وتدل على ذلك عبارة «لاَ يَنْظُرُ لِهَذا الطِّفْلِ إِلاَّ مَنِ اللهُ طَفَّلَهُ، وَلاَ يَرِقُّ لِهذا الضُّرِّ إِلاَّ مَنْ لا يأْمَنُ مِثْلَهُ» وعبارة «إِنَّكُمْ لَنْ تَأْمَنُوا حَادِثاً، وَلَنْ تَعْدَمُوا وارِثاً» وتكمن قيمة هذه الحجة كذلك في الدعوى إلى التفكير في عاقبة من يرى الناس في ضيق ولا يبادر إلى تفريج الهم عنهم.

ثالثا: منطلقات الحجاج:

تعتبر منطلقات الحجاج من أهم الركائز التي يبنى عليها الخطاب الإقناعي، حيث يسعى فيها الخطيب إلى التكيف مع مستمعه، ولا يتأتى له هذا دون اختيار المقدمات المناسبة لبدء العملية الحجاجية حتى تتوسع دائرة الحوار بينهما وتكون نتائجها مقبولة، لأن "الهدف هو نقل الاعتناق (Adhesion)الحاصل حول المقدمات إلى النتائج"[22]، فالمقدمات لها دورها الأساسي في الوصول إلى المراد وضمان النتيجة المتوقعة، وهي بذلك تحدد سير المحاججة من البداية.

وقد تجسد ذلك في المقامة البخارية، حيث عمد أبو الفتح إلى تهيئة جمهور المخاطبين عن طريق عرض حالة اجتماعية مرتبطة بحياة الأفراد والمجتمعات وتشكل قاسما مشتركا بينهم، وهي حالة العوز والحاجة وتقلبات الدهر وحلول المصائب التي تلم ببعض أفراد المجتمع والتي لا يستطيع أي أحد إنكارها أو الشك فيها. وبالتالي، فهو قد مهد الطريق منذ البداية إلى الوصول إلى النتيجة المرجوة من خطابه وهي تعاطف الجمهور معه والجود بما يملكون.

إضافة إلى الوقائع التي تعتبر من موارد المقدمات نجد كذلك الافتراضات أو الاحتمالات -كما يسميها محمد الولي- التي ترتبط بما هو معقول،وتمتاز بطابعها العام الذي كشف بيرلمان جانبا منه من قبيل:

- "مظنون أن نوعية الأفعال تكشف عن صفات فاعلها
- مظنون المصداقية الطبيعية التي تجعل تصديقنا لما يقال لنا هو رد فعلنا الأول
- مظنون الاهتمام الذي يجعلنا نعد كل ملفوظ يصل إلى أفهامنا مهما
- المظنون المتعلق بعد كل فعل إنساني ذي معنى"[23]

وتتعلق هذه المظنونات بما ساقه أبو الفتح من كلام يعكس شخصيته ،كما تتعلق بالمتلقي الذي يعتبر أن مضمون كلامه يجب أن يحظى بالاهتمام كونه خطابه يعبر عن وقائع مهمة تصف حالة وسلوك فرد أو جماعة في زمان ومكان معين ليس الغرض منها التسلية أو الإمتاع وإنما تشخيص لظاهرة واقعية تستدعي الوقوف على تفاصيلها وكيفية التعامل معها.

رابعا: العوامل والروابط الحجاجية ودورها في تشكيل الأهواء

بالرغم من أن العوامل والروابط الحجاجية من العناصر المهمة في الخطاب باعتبارها تقوم على تحقيق وظائف اللغة، وإظهار مقاصد المخاطبين التأثيريةوالإقناعية، إلا أنها تساهم في تشكيل الأهواء والانفعالات لذلك فهي "ذات مرام حجاجية عندما تستخدم في التخاطب، وليس لها من قيمةأخرى إلاالبرهنة على حجاجيةاللغة ووظيفتها الإقناعية"[24]، وقد ميز أبو بكر العزاوي بينهما من حيث آلية عملهما في بنية الخطاب اللغوية؛إذ تربط الروابط بين "قولين أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر)، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجيةالحجاجيةالعامة"[25].

أما العوامل الحجاجية فهي "لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجه ونتيجةأو بين مجموعة حجج) ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما"[26].

ويقترب مفهوم العزاوي للروابط والعوامل الحجاجيةمن المفهوم الذيأورده الباحث كارون في دراسته المعنونة بـ "العوامل المنطقية والعوامل الخطابية"، التي رأى فيها أن دور العوامل الخطابية يكمن "في توجيه الحجاج خاصة والخطاب عامة نحو نتيجة محددة، وبالتالي فهي لا تصنع القضايا ولا تربط بينها، ولكنها تجمع وتنسق بين الأحداثالقولية وفي كلمةإنها المسؤولة عن تركيب وتحويل الوضعيات الخطابية"[27]، كما تعمل على دعم وتقوية الملفوظات الحجاجية، وإزالة اللبس عنها وحصرالتأويلات من تعدد النتائج. وبالتالي، فهي آلياتلغويةتتيح لمنتج الخطاب الحريةفي اختيار القضايا والأقوال وطريقة توجيهها نحو الهدف والنتيجة التي يروم الوصول إليها.

وبالعودة إلى المقامة، نرى أن العوامل والروابط الحجاجية فيها قد لعبت دوراكبيرا في إبراز وجهة الخطاب الحجاجي وإبراز الأهواء والانفعالات، ولعل أكثرها كثافة وحضورا حرفا العطف الواو والفاء وأسلوب الشرط وأسلوب القصر.

1.4– الواو: وهو رابط حجاجي وظيفته داخل بنية الخطاب هو الربط بين حجة أو مجموعة من الحجج وبين النتيجة حيث:

ح1 و ح2 و ح3 و ح4.... ← و ← ن1 و ن2 و ن3

الحجج:

-الجُدودِ المفْروزَةِ، وَالأَزْدِيةِ المطروزَةِ، وَالدُّورِ المَنْجَدَةِ، والقُصُورِ المشَّيدَةِ

-إِنَّكُمْ لَنْ تَأَمَنُوا حَادِثاً، وَلَنْ تَعْدَمُوا وارِثاً

-طَعِمْنَا السِّكْبَاجَ، وَرَكِبْنَا الهِمْلاجَ، وَلَبِسْنَا الدِّيبَاجَ، وَافْتَرَشْنَا الحَشَايَا

-فَعَادَ الهِمْلاَجُ قَطُوفاً، وانْقَلَبَ الدِّيبَاجُ صُوفاً

والنتيجة:

فَهَلْ مِنْ كَرِيمٍ يَخْلو غَياهِبَ هذِهِ البُؤُوسِ، وَيَفُلُّ شَبَا هذِهِ النُّحوسِ

فلْيشْغَلْ كُلُّ مِنْكُمْ بِالجُودِ يَدَهُ، وَلْيَذْكُرْ غَدَهُ، وَاقِياً بِيَ ولَدَهُ، واذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ، وأَعْطُونِي أَشْكُرْكُمْ

2.4– الفاء: وتلعب دور الربط بين الحجة والنتيجة ضمن دائرة أكبر من الرابط الحجاجي الواو حيث تكون بين حجة كبرى (الفاقة) والنتيجة (تقديم يد العون) التي تشكل بنية الخطاب، ويمكن تمثيلها بـ:

حجة ← الفاء ← نتيجة

-الجُدودِ المفْروزَة، وَالأَرْدِيةِ المطروزَة، وَالدُّورِ المنَّجَدَة، والقُصُورِ المشَّيدَة...فلْيشْغَلْ، فَنُلْنَاهُ

وما تتم الإشارة إليه في هذا المقام أن الربط بالفاء والواو في المقامة هو كثيف الحضور وذو دلالات مختلفة إلا أنها تسير في الاتجاه نفسه في نسيج النص وبالتالي فإن التعبير " ليس مدلول عبارة فحسب، بل هو استخلاص حجة مستمدة من مقدمات أيضا، وهذه هي مهام الروابط الحجاجية، فهي كلمات أو عبارات قد تكون مقدمة لحجة كما قد تكون مقدمة لنتيجة، وكل أداة من أدوات الربط قد تكون لها أكثر خاصية دلالية وتداولية"[28]

3.4– أسلوب الشرط:

من العوامل الحجاجية البارزة في نص المقامة أسلوب الشرط، فالشرطمن العوامل الحجاجيةالتي لا تربط بين بين حجه ونتيجةأو بين مجموعة حجج وهو عامل مهم يقوم بحصر الإمكانات الحجاجية التي تساعد في توجيه المخاطب إلى النتيجة المتوخاة من الخطاب وهو بذلك يعمل على عزل باقي الاحتمالات الأخرى والتركيز على ما هو ضروري وأمثلته في النص ما يلي:

-ما عَسى أَنْ أَقُولَ وَهذا الكلامُ لَوْ لَقِيَ الشَّعْرَ لَحَلَقَهُ، أَوْ الصَّخْرَ لَفَلَقَهُ

وهي عبارة تدل على قوة الطرح لدى أبي الفتح وقدرته على النفاذ إلى أذهان مستمعيه عن توجيههم إلى حقيقة أن ما يمر به من مرارة العيش وضيق الحال لا يمكن صرف النظر عنها أو تجاوزها ولبيان ذلك لجأ إلى استخدام الشرط ب الأداة لو وما يريده بهذه العبارة هو أنه لو لم يكن في هذه الحال المزرية لما مد يده إلى غيره.

5.4– أسلوب القصر:

يعتبر أسلوب القصر من العوامل الحجاجية التي تساهم في فعالية النص وربط أجزائه لذلك فهو يتمتع بطاقة حجاجية مهمة لا يمكن الاستغناء عنها في الخطابات الإقناعية، فالقصر لغة هو الحبس[29] واصطلاحا هو" تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، ويقال أيضا: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه"[30]، وأنوعه وطرقه كثيرة غير أن أشهرها القصر بالنفي والاستثناء الذي تواتر في المقامة البغدادية في العبارات التالية:

-لاَ يَنْظُرُ لِهَذا الطِّفْلِ إلاَّ مَنِ اللهُ طَفَّلَهُ

-لاَ يَرِقُّ لِهذا الضُّرِّ إلاَّ مَنْ لا يأْمَنُ مِثْلَهُ

-لا نَزْنُو إلاّ بِعَيْنِ الْيَتيمِ

- لاَ نَمُدُّ إلاَّ يَدَ العَدِيمِ

فالقصر في هذه العبارات جاء تحقيقا لغايات حجاجية وهي إثبات أن هذه الصفات مقصورة على مخاطبين دون غيرهم من الناس وليس لغاية الإعلام والإخبار كقولنا لم يأت إلا محمدا، وقد جاء القصر بالنفي والاستثناء في هذه المواضع للحث والتحريض واستنفار النفوس ولتبيين حالة ومكانة المتكلم والمستمع؛ ففي العبارة الأولى والثانية تم التوجه إلى المستمع حيث أن صفة التعاطف والتآزر والرحمة لا تكون إلا في من كان يؤمن بأن

ما أصاب الآخرين قد يصيبه ودفع الشدائد عنهم هو سبيل للوقاية من الوقوع فيها، وأن من رزقه الله أولادا لا يمكن له أن يدير وجهه لهذا الطفل العريان وهو تهييج لعاطفة الأبوة ، أما في العبارة الثالثة والرابعة فتتعلق بإبراز الذات المقهورة المنكوبة التي لا تملك إلا اليتم والعدم.

فالحجاج في هذه العبارة هو ذو بنية منطقية تأخذ طابعا استدلاليا ويمكن تمثيله:

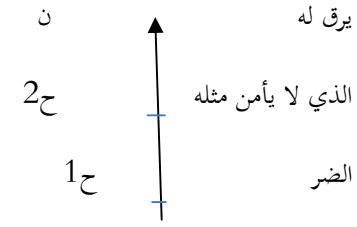

خاتمة

تبين من خلال هذه الدراسة أن المقامة كغيرها من الفنون النثرية الأخرى تعد من الخطابات الحجاجية التي يسعى فيها المخاطب إلى التأثير في مستمعيه بطرق وكيفيات مختلفة، وأن نظرية البلاغة الجديدة قد أتاحت لمحللي الخطابات جملة من الآليات والإجراءات للكشف عن بنيتها التي لا تقوم على جمالية اللغة، بل تتعدى ذلك إلى مضامين أخرى متخفية لم تستطع بعض النظريات والمناهج النقدية تفكيكها والوقوف على دورها وآليات اشتغالها.

ومما لا شك فيه أن الوصول إلى الغايات والأهداف التي ينشدها كل خطيب تتطلب دربة وخبرة بخبايا النفوس وإتقان فن مخاطبة القلوب قبل مخاطبة العقول، ولعل أبو الفتح كان عالما بذلك أكثر من علمه باللغة؛ لأن اللغة ألفاظ ومعان لا تنتظم في الخطاب قبل انتظامها في العقل والنفس، إضافة إلى ذلك، يمكن القول إن الحجاج بالأهواء والانفعالات يعد من أقوى آليات الحجاج ما كان صادقا لا مغالطا.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا: الكتب باللغة العربية

1. إنعام الجندي: الرائد في الأدب العربي، دار الرائد العربي(لبنان)، ج1، ط2، 1986م.
2. بديع الزمان الهمذاني:كتاب المقامات، تقديم وشرح: محمد عبده، دار الكتب العلمية(لبنان)، ط3، 2005م.
3. أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع (المغرب)، ط1، 2006م.
4. الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي(مصر)، ج1، ط7، 1998م.
5. حسن عباس: نشأة المقامة في الأدب العربي، دار المعارف(مصر) د ط، د ت.
6. الحسين بنو هاشم: بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديدة المتحدة(الأردن)، 2014م.
7. زكي مبارك:النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى(مصر)، ج1، ط2، د.ت.
8. زهير بن أبي سلمى: الديوان،شرح وتقديم: علي حسن فاعو، دار الكتب العلمية(لبنان)، ط1، 1988م.
9. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب(مصر)، ج3، د ط،1974م.
10. شوقي ضيف: المقامة، دار المعارف(مصر)، ط3، 1973م.
11. عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع(تونس)، ط1، 2011م.
12. عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، دار النص(تونس)، ط1، 2011م.
13. محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع(الأردن)، ط1، 2018م.
14. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر(لبنان)، ج12، ط3، د.ت.

ثانيا: الكتب المترجمة

1.أرسطو: فن الخطابة، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار الرشيد للنشر(بغداد) د.ط، 1980م.

2.فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب التداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، (المغرب)، د ط،2000م.

ثالثا: الكتب باللغة الأجنبية

1.Chaïm Perlman et Lucie Olbrecht-Tyteca, Traité de l'argumentation, édition de l'université de Bruxelle, 2000.

2.Chaïm Perlman, L'empire rhétorique, Rhétorique et argumentation logique Dialectique, Philosophie et rhétorique, chap, Librairie philosophique. Vrin, France, 1977.

3.Jean Caron, Les régulations du discours: psycholinguistique et pragmatique du language, pu. F.

الهوامش:

[1] – ابن منظور: لسان العرب، دار صادر(لبنان)، ج12، ط3، د.ت، ص498.

[2] – سورة البقرة، الآية125.

[3] – سورة فاطر، الآية35.

[4] – حسن عباس: نشأة المقامة في الأدب العربي، دار المعارف(مصر) د ط، د ت، ص09.

[5] – زهير بن أبي سلمى: الديوان،شرح وتقديم: علي حسن فاعو، دار الكتب العلمية(لبنان)، ط1، 1988م، ص87.

[6] – زكي مبارك:النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى(مصر)، ج1، ط2، د.ت، ص197.

[7] – إنعام الجندي: الرائد في الأدب العربي، دار الرائد العربي(لبنان)، ج1، ط2، 1986م، ص488.

[8] – شوقي ضيف: المقامة، دار المعارف(مصر)، ط3، 1973م، ص09.

[9] – بديع الزمان الهمذاني:كتاب المقامات، تقديم وشرح:محمد عبده، دار الكتب العلمية(لبنان)، ط3، 2005م، ص97-101

[10] – شوقي ضيف: المقامة، ص10

[11] – محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع(الأردن)، ط1، 2018م، ص258.

[12] – أرسطو: فن الخطابة، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار الرشيد للنشر(بغداد) د.ط، 1980م، ص103.

[13] – الحسين بنو هاشم: بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديدة المتحدة(الأردن)، 2014م، ص308.

[14] – محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص257.

[15] – ينظر: المرجع نفسه، ص268-269.

[16] – ينظر: عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع(تونس)، ط1، 2011م، ص30-32.

[17] – الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي(مصر)، ج1، ط7، 1998م، ص89.

[18] – سورة الأنعام، الآية 46.

[19] – سورة البقرة، الآية233.

[20]- Chaïm Perlman et Lucie Olbrecht-Tyteca, Traité de l'argumentation, édition de l'université de Bruxelle, 2000, p59

[21] – الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص254.

[22] – الحسين بنو هاشم: نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص41.

[23] - Chaïm Perlman, L'empire rhétorique, Rhétorique et argumentation logique Dialectique, Philosophie et rhétorique, chap, Librairie philosophique.J. Vrin, France, 1977.p39.

[24] – عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، دار النص(تونس)، ط1، 2011م، ص19.

[25] – أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، دار العمدة في الطبع (المغرب)، ط1، 2006م، ص27.

[26] – المرجع نفسه، ص27.

[27]- Jean Caron, Les régulations du discours: psycholinguistique et pragmatique du language, pu. F, p173

[28] – فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب التداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، (المغرب)، د ط،2000م، ص133.

[29] – ابن منظور: لسان العرب، ج5، ط3، مادة (ق ص ر)، ص98-104

[30] – السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب(مصر)، ج3، د ط،1974م، ص166.